

أثر البداوة العربية في شعر المتنبي

محمد محمد فيض

كلية السياحة والضيافة مصراة - ليبيا

مقدمة

تنقل المتنبي في كثير من البيئات الحضرية، منها والبدوية وقضى فترة غير قصيرة في البادية، في فترة الصبا والتي أثرت في حياته الفنية، ولم يستطع الفكاك من هذه الروح، واكتسب فيها فصاحتها وقوتها، ومعانيها، ثم انتقل المتنبي بعدها إلى الحياة الحضرية، وفي بلاطات الأمراء والخلفاء ولكنه حمل معه هذه الروح الوثابة. تلك هي أهم الأسباب والمسوغات التي دفعت بي إلى تناول هذا الموضوع "أثر البداوة العربية في شعر المتنبي" بالدراسة والبحث آملاً بذلك أن ألقى ضوءاً - مهما كان يسيراً - فهو ضوء على كل حال ينير لنا مسالك الماضي الوعرة، ويكشف ما احتجب وراءه من حقائق مذهلة، وعبر ودروس مستفادة، فنأخذ منها ما يعيننا على فهم حاضر أليم، والإعداد لمستقبل واعد، وهنا تكمن أهمية هذا البحث لحياتنا الحاضرة. وقد حاولت أن أجعل هذا البحث خلاصة واختصاراً لما قرأته في الكثير من المصادر عن أثر البداوة العربية في شعر المتنبي واستدعت طبيعة هذا البحث أن يكون في موضوع البحث ومن بعده خاتمة يتناول البحث البداوة باعتبارها من عناصر العربية في شعر المتنبي فقد كانت البادية من أهم مكونات العربية، لذا توجه إليها بعقله وقلبه لأنه رأى فيها البديل الحقيقي لحياة الحاضرة العربية التي اختفت فيها ملامح العربية وباتت تتعارض بمعطياتها مع نظرته إلى الحياة ورسالته فيها.

أثر البداوة العربية في شعر المتنبي

أتم المتنبي تعليمه في كُتَّاب العلويين، حيث درس اللغة شعرها ونحوها وبعدها ارتحل إلى فيافي بادية السماوة - بين الكوفة وتدمر - حيث اختلط بالأعراب، فأتقن اللغة وتلقى دروسه العميقة في معرفة الأنساب والعادات وأيام العرب، وشكلت الرحلة إلى البادية جل حياته، وكانت رافداً هاماً من روافد اللغة لديه فقد "دار الشام كله سهلة وجبله"¹، كما كانت من أهم ينابيع ثقافته ومكونات شخصيته المتفردة يقول²:

بَرَيْتِي السُّرَى بَرَى الْمُدَى فَرَدَدْنِي .: أَخْفَ مِنْ الْمَرْكُوبِ مِنْ نَفْسِي جَزْمِي
وَأَبْصَرَ مِنْ زُرْقَاءِ جَوْ لَأَنَّنِي .: إِذَا نَظَرْتُ عَيْنَاي سَاوَاهُمَا عِلْمِي
كَأَنِّي دَحَوْتُ الْأَرْضَ مِنْ خَبْرَتِيهَا .: كَأَنِّي بَنَى الْإِسْكَانِدْرُ السَّدَّ مِنْ عَزْمِي

ويقول في سيره في الفيافي العربية واصفاً شجاعته³:

أَوَانَا فِي بُيُوتِ الْبَدْوِ رَحْلِي .: وَأَوْنَةً عَلَى قَتَدِ الْبَعِيرِ
أَعْرَضَ لِلرَّمَا حِ الصَّمِّ نَحْرِي .: وَأَنْصَبُ حُرّاً وَجْهِي لِلْهَجِيرِ
وَأَسْرِي فِي ظِلَامِ اللَّيْلِ وَحْدِي .: كَأَنِّي مِنْهُ فِي قَمَرٍ مُنِيرِ
فَقُلُّ فِي حَاجَةٍ لَمْ أَقْضِي مِنْهَا .: عَلَى شَعْفِي بِهَا شَرَوَى نَقِيرِ
وَنَفْسٍ لَا تُجِيبُ إِلَى خَسِيسِ .: وَعَيْنٍ لَا تُدَارُ عَلَى نَظِيرِ
وَقَلَّةٍ نَاصِرٍ جُوزِيَتْ عَنِّي .: بِشَرِّ مَنْكَ يَا شَرَّ الدُّهُورِ

وقد تركت حياته في البادية أثراً كبيراً في نفسه، وأثرت في تكوين شخصيته، فقد أمدته بروح البداوة العربية، وسمته بمياسمها من قوة وجرأة وصرامة، ودهاء وصبر وحزم ألم يقل⁴:

¹ محمود شاكر، المتنبي، مطبعة المدني، القاهرة، 1407هـ-1987م، 2/256.
² المتنبي، ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، 1986م، ج4، ص170-171.
³ نفسه، ج2، ص246-247.

الْحَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي .: وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
وأكسبته الصحراء العربية الجلد على المكاره ومضاء العزم يقول⁵:
يُحَاذِرُنِي حَتْفِي كَأَنِّي حَتْفُهُ .: وَتَنَكَّرُنِي الْأَفْعَى فَيَقْتُلُهَا سُمِّي
طَوَالَ الرُّدَيْنِيَّاتِ يَقْصِفُهَا دِمِي .: وَبَيْضُ السَّرِيحِيَّاتِ يَقْطَعُهَا لَحْمِي
ويقول⁶:

أَطَاعِنُ حَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدَّهْرُ .: وَحِيدًا وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ
وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلِّ يَوْمٍ سَلَامَتِي .: مَا تَبَتَّتْ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ
تَمَرَسْتُ بِالْأَفَاتِ حَتَّى كَأَنَّ لِي .: سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَثْرُ
ذِرِّ النَّفْسِ تَأْخُذُ وَسَعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا .: فَمَفْتِرُقُ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

ومن المحقق أن إقامته بين هؤلاء البدو أكسبته معرفة بمسالك الصحراء ودروبها، وهذا ما أعانه على الهروب من مصر إلى العراق عبر مسالك لم يعرفها الآخرون يقول ابن فورجه "كان عارفاً بالفلوات ومواقع المياه ومحال العرب بها"⁷، كما أن إقامته بين هؤلاء البدو قد أكسبته معرفة عميقة باللغة العربية تفاخر بها حد الفخر من بعد⁸. وقد وافقت البادية العربية هوى في نفسه، فقد وجد فيها ما يوائم أخلاقه "ففي خلق أبي الطيب قوة وخشونة تميلان به إلى كل قوي وكل خشن وتعدلان عن كل ضعف وكل لين، وفي خلقه صراحة تحبب إليه كل صريح من القول والفعل والرأي وتتفره من كل مموه مزخرف وقد لاعمت هذه الأخلاق التبدي، وزادها التبدي تمكناً فيه وظهر أثر هذا في فعله وقوله"⁹.

⁴ نفسه، ج 4، ص 85.

⁵ نفسه، ج 4، ص 169-170.

⁶ نفسه، ج 2، ص 252-253.

⁷ محمود محد شاكور، المنتبى، ص 336.

⁸ محمد ثابت الفندي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، مُترجم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997، ص 318.

⁹ عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، دار المعارف، ط 2، القاهرة، 1375هـ-1965، ص 215.

وعرف عنه جده في طلب العلم جاء في الصبح المنبي "أن رجلاً من أهل الشام كان يتوكل المتنبي يعرف بأبي سعيد: أن المتنبي عاد من دار سيف الدولة آخر النهار، ويعد أن فرغ من تناول الطعام، قدم له شمعة، ووضع دفاتره ويات يدرس حتى مضى من الليل أكثره، وكانت تلك عادته كل ليلة"¹⁰. وقال عنه أبو القاسم صاحب الواضح في مشكلات المتنبي "وجملة القول فيه أنه من حفاظ اللغة ورواة الشعر"¹¹، كما قرر أبو القاسم أنه كان "يحفظ ديواني الطائيين، ويستحبهما في أسفاره ويحدهما"¹².

وكان المتنبي حجة في اللغة يروى عنه، لم يسأل عن شيء إلا استخدام أدلة من الشعر أو النثر، ويرى الخطيب البغدادي أنه "كان من المكثرين في نقل اللغة، والمطلعين على غريبها، ولا يسأل عن شيء إلا استشهد بكلام من النظم والنثر"¹³. "ورب رمية من غير رام" وحتى أولئك النقاد الذين تتبعا ما زعم أنه سرقات المتنبي، أثبتوا دون قصد نقطة لصالح المتنبي تتمثل في عكوفه على دراسة تراثنا العربي شعره ونشره فهو كما قال عنه أبو بكر الخوازمي "كانت أدواته كلها جيدة، نظمه وشعره، وعربيته ولغته"¹⁴.

وقد تركت البداوة بصماتها واضحة في لغة المتنبي، فقوت من أسلوبه، وأحوجت قارئ شعره إلى العودة إلى معجمات اللغة وقواميسها وإمعان النظر فيها. وتظهر نزعة العربية البدوية بوضوح كامل أمام معاني الجمال التي تتفق مع أخلاق الشاعر الفارس الذي يجعل الحب بعضاً من أمجاده هي ليست تعبيراً عن حب حقيقي - كما يبدو للقارئ بقدر ما هي تعبير عن فلسفة خاصة ورؤى خاصة

¹⁰ يوسف البديعي، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، تحقيق مصطفى السقا ومحمد شتا، ط2، دار المعارف، مصر، 1963، ص94-95.

¹¹ أبو القاسم الأصفهاني، الواضح في مشكلات المتنبي، تحقيق محمد طاهر بن عاشور، ط2، تونس، 1986، ص27.

¹² نفسه، ص15.

¹³ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مصر، 1349-1931م، 4/102.

¹⁴ محمود شاكر، المتنبي، ص336.

ورأي خاص يعلنه شاعر بدوي كبير ، تملكت البداوة في نفسه وأسلوبه، وإذا كان لا يبد من تغزل بالجمال ، فإن في وعي المتنبي ولا وعيه دائماً صورة محببة للبديوات الرعابيب اللواتي رافقهن أيام الصبا والفتوة، وتكلمت عيناه برؤيتهن في البادية يقول¹⁵:

إِنَّ الَّذِينَ أَقَمْتُمْ وَاحْتَمَلُوا
الْحَسَنُ يَرْحَلُ كُلَّمَا رَحَلُوا
فِي مُقَلَّتِي رَشَاءً تُدِيرُهُمَا
تَشْكُو الْمَطَاعِمَ طَوَّلَ هَجْرَتِهَا
مَا أَسَارَتْ فِي الْقَعْبِ مِنْ لَبَنٍ
ويقول¹⁶:

أَيَامُهُمْ لِإِيَارِهِمْ دَوْلٌ
مَعَهُمْ وَيَنْزِلُ وَحَيْثُمَا نَزَلُوا
بَدْوِيَّةٌ فَتَمَّتْ بِهَا الْحِلَالُ
وَصُدُودِهَا وَمَنْ الدِّي تَصِلُ
تَرَكَّتُهُ وَهُوَ الْمِسْكُ وَالْعَسَلُ
ويقول¹⁷:

وَمَا شَرَفِي بِالْمَاءِ إِلَّا تَذَكُّرًا
يُحْرِمُهُ لَمَعُ الْأَسِنَّةِ فَوْقَهُ
أحْبُ حِمَصًا إِلَى خُنَاصِرَةٍ
حَيْثُ التَّقَى حَدَّهَا وَتَفَاحَ لُبُ
وَكُلُّ نَفْسٍ تُحِبُّ مَحْيَاهَا
سَنَانَ وَتَعْرِى عَلَى حُمَيَّاهَا

والشاعر في هذه الأبيات يمثل العواطف العربية، التي تظهر تحنانه إلى معيشتهم البدوية بكل سجاياها وخصائصها. ويبدو أن الجو المفضل لدى الشاعر هو جو البادية بعيداً عن صخب المدينة وزينتها الزائفة، وهو يقارن بين نوعين من الجمال والحسن: جمال الحاضرة وحسن البادية، وتلقائياً ويفطرته العربية الأصلية نراه يفضل حسن البادية على ما سواه من جمال لأن فيه الطهر والبراءة والعفة والطبع، ولعله في ذلك يعبر عن موقف نفسي دفين، ورؤى خاصة دفعه إلى ذلك أسباب ومسوغات يراها هو وجبهة يقول¹⁸:

¹⁵ المتنبي، ديوان المتنبي، ج4، ص16-17.

¹⁶ نفسه، ج3، ص212.

¹⁷ نفسه، ج4، ص407.

¹⁸ نفسه، ج1، ص288-290-291.

مَنْ الْجَائِزُ فِي زِيِّ الْأَعْرَابِ :. حُمْرُ الْحَلَى وَالْمَطَايَا وَالْجَلَابِيبِ
 كَمْ زُورَةٌ لَكَ فِي الْأَعْرَابِ خَافِيَةً :. أَذْهَى وَقَدْ رَقِدُوا مِنْ زُورَةِ الذَّيْبِ
 أُرْوَاهُمْ وَسَوَادُ اللَّيْلِ يَشْفَعُ لِي :. وَأَنْتَنِي وَبِيَاضُ الصُّبْحِ يُعْرِِي بِي
 مَا أَوْجَعَهُ الْحَضْرُ الْمَسْتَحْسَنَاتُ بِهِ :. كَأَوْجَعِهِ الْبَدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيْبِ
 حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ :. وَفِي الْبَدَاوَةِ حُسْنٌ غَيْرٌ مَجْلُوبٌ

ويقارن بين البدويات الرعابيب وبين الحضريات قاطنان المدينة يقول¹⁹:

أَيْنَ الْمَعِيزُ مِنَ الْأَرَامِ نَاطِرَةً :. وَعَيْرٌ نَاطِرَةٌ فِي الْحُسْنِ وَالطَّيِّبِ
 أَفْدي ظِبَاءً فَلَاةٍ مَا عَرَفْنَ بِهَا :. مَضَعُ الْكَلَامِ وَلَا صَبَغُ الْحَوَاجِبِ
 وَمِنْ هَوَى كُلِّ مَنْ لَيْسَتْ مَمُوهَةً :. تَرَكْتُ لَوْنَ مَشِيبِي غَيْرَ مَخْضُوبِ

وتمثل الأبيات السابقة عند الشاعر تعبيراً عن ظلال نفسية مخزونة مكبوتة في كوامن ذاته، والتي استطاع من خلالها أن يطلق العنان لتلهفه إلى أجواء البادية الأثيرة إلى نفسه انطلاقاً من حالات الانكسار والإخفاق والخيبة واليأس من المدينة وسكانها. "ونراه في هذا القبيل يخالف أبا نواس وسواه من الذين عاشروا الجواري الأعجميات وانغمسوا في اللهو ومعهن"²⁰ وقد قصر هذا البدوي حياته على الرزانة والجد ومقارعة الأعداء والبعد عن التغزل بالحسان، وتجنب اللهو والنزف أو العبث بما يتفق وأخلاق البدوي الجادة صاحب الرسالة العظيمة يقول²¹:

وَعَيْرٌ فَوَادِي لِلْعَوَانِي رَمِيَةً :. وَعَيْرٌ بَنَاتِي لِلزُّجَاجِ رَكَابُ
 تَرَكْنَا لِأَطْرَافِ الْقَنَا كُلِّ شَهْوَةٍ :. فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا بِهِنَّ لِعَابُ
 أَعْرُ مَكَانٍ فِي الدُّنَى سَرَجُ سَابِحٍ :. وَخَيْرٌ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

إنها البادية العربية التي تلقي بظلالها على قاطنيها، فتعلمهم الصدق مع النفس والصدق مع الآخرين، وهكذا كان المتنبي يقول ابن جني "ما عرفت المتنبي إلا صادقاً"²².

¹⁹ نفسه، ج1، ص291.

²⁰ أنيس المقدسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، ط16، بيروت 1987م.

²¹ المتنبي، ديوان المتنبي، ج1، ص318-319.

²² ابن جني، الخصائص، ط دار الكتاب المصرية، 1956م، ص248.

ولسنا هنا بصدد الحكم على غزليات الشاعر من الناحة الفنية، وإن كانت في رأيي تمثل اسقاطاً لمواقف ورؤى سياسية دفيئة وظاهرة أكثر منها غزلية، لكن من الواضح أن الجمال الحضري والعيش في المدينة لم يغير من طبع المتنبي البدوي، أو من مفهومه للجمال الحقيقي الأصيل.

وقد بقى الشاعر أسيراً لبدائوته التي طبعت حياته وتصرفاته من صباه إلى لحظة مصرعه، ولقد بقى أثر البادية عميقاً في حياته، مطبوعاً في ذهنه وخياله فكان شعره لا يخلو من هذا الأثر حتى بعد انتقاله إلى الحضر، فكانت لغة البادية في معاينة وقوافيه، يهيج فؤاده بالأعرايبات يتزئم بالوفاء والفاء ويعبد البطولة، ويتغنى بالسيوف والرماح ومحطات الخيل وهدير الفحول²³.

وقد كانت لظروف نشأته البدوية، وتغلغلها في أعمال حياته، وعشقه لأسلوب حياتها أثر واضح في شعره فهو العربي القح بل البدوي القح الذي قوت البادية وإقامته فيها من عصبية العربية، وأذكت انتماءه إلى الأصل العربي فازداد تعصبه للعرب والحياة العربية، لذا نراه يذكر العرب دائماً مفاخراً بهم يقول مخاطباً سيف الدولة²⁴:

رَفَعْتَ بِكَ الْعَرَبَ الْعِمَادَ وَصَيَّرْتَ .: قِمَمَ الْمُلُوكِ مَوَاقِدَ النَّيِّرَانِ
أَنْسَابُ فخرِهِمْ إِلَيْكَ وَإِنَّمَا .: أَنْسَابُ أَصْلِهِمْ إِلَى عَدْنَانَ

كما استهل مطالع قصائد بالفروسية التي عشقها في ذاته الفارسة، وعبرت عنها لواعجه، الواضح أن هذه المطالع لا يقصدها المتنبي لذاتها بل نراها إشارات إلى دلالات ورموز يمكن أن يلقي عليها الضوء في مجريات أمور زمانه وأحدث عصره المتفجرة ضد العرب ونستهدي بها في تفسير كثير من سجاياه النفسية، كظاهرة الأنفة والكبرياء والتعالي الذي أتعبته وأتعبت الآخرين معه، وارتحلت معه إلى جوانحه في الحواضر والبوداي.

والشاعر يرقب العصر يحذر فهو عربي "الوجه واليد واللسان"²⁵ فلم تخدعه دعوة الشعبي الماجن أبي نواس وأمثاله لأنه كان وفياً للعرب وتراثهم الشعري فاختر

²³ زكي المحاسني المتنبي، ط4، دار المعارف، مصر 1971م، ص57 .

²⁴ المتنبي، ديوان المتنبي، ج4، ص317.

²⁵ زكي المحاسني، المتنبي، ص57.

مطالع قصائده على نهج الجاهليين وأميرهم امرئ القيس ولكن على طريقته المبدعة في إطار القديم وفي أصالته وعراقته يقول²⁶:

- وَقَاوُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشَجَاهُ طَاسِمُهُ .: بَأْنَ تُسْعِدَا وَالدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهُ
 وَمَا أَنَا إِلَّا عَاشِقٌ كُلَّ عَاشِقٍ .: أَعَقُّ خَلِيلِيهِ الصَّفِيَّيْنَ لِأَثْمِهِ
 وَقَدْ يَتَرَيَا بِالْهَوَى غَيْرَ أَهْلِهِ .: وَيَسْتَصِحِبُ الْإِنْسَانَ مَنْ لَا يُلَائِمُهُ
 بَلِيَّتٌ بَلَى الْأَطْلَالَ إِنْ لَمْ أَقِفْ بِهَا .: وَقُوفَ شَحِيحِ ضَاعَ فِي النَّزْبِ خَاتِمُهُ
 كَنِيْبًا تَوْفَانِي الْعَوَادِلُ فِي الْهَوَى .: كَمَا يَتَوَفَّى رِيْضَ الْخَيْلِ حَازِمُهُ
 قَفِي تَغْرِمُ الْأَوْلَى مِنَ اللَّحْظِ مُهْجَتِي .: بِثَانِيَةِ وَالمْتَلَفُ الشَّيْءِ غَارِمُهُ
 سَقَاكَ وَحَيَاتَنَا بِكَ اللهُ إِنَّمَا .: عَلَى الْعَيْسِ نَوْرٌ وَالخُدُورُ كَمَاثِمُهُ
 وَمَا حَاجَةُ الْأَطْعَانِ حَوْلِكَ فِي الدُّجَى .: إِلَى قَمَرٍ مَا وَاجِدُ لِكَ عَادِمُهُ
 إِذَا ظَفَرْتَ مِنْكَ الْعِيُونَ بِنَظْرَةٍ .: أَثَابَ بِهَا مَعْيِي الْمَطِيَّ وَرَازِمُهُ

ويؤكد الشاعر انتماءه العربي إلى البادية العربية بكل جذورها وأبعادها النفسية والأدبية، فهو يسير على نهج شعراء الجاهلية ووفاء للتقاليد العربية الشعرية ووفاء للأطلال وتربها الطاهر.

وهكذا عادت تقاليد البداوة تتراءى في الأفق من جديد عند المتنبي فأثرت في لغته كالزلازل المدمر الذي عصف بكل موروثاتنا السياسية والاجتماعية والأدبية التي أطلقها أبو نواس وأمثاله مستترة تحت عباءات كثيرة أبرزها الحداثة الشعرية. والشاعر يبرهن بصورة قوية أن لغتنا العربية بما تملك من ألفاظ ومعان ودلالات قادرة على أن تخرج القديم في ثوب جديد " نسيجه صفاء الكلمة وصفوة المعاني وروعة الخيال ، ونظم الأساليب لدرجة أو شك بها أن يكون معجزاً²⁷، وهو بذلك يؤكد عراقية القديم وأصالته موروثاتنا القديمة ولكنها عند المتنبي "الفكر والوجدان يتعانقان، بل يتمازجان ليصير شعره غذاء العقل، ولذة النفس ومتاع الأجيال"²⁸.

²⁶ المتنبي، ديوان المتنبي، ج4، ص43 وما بعدها.

²⁷ سعد شلبي، مقدمة القصيدة عند أبي تمام والمنتبي، مكتبة غريب، القاهرة، ص103.

²⁸ يوسف خليف، في الشعر العباسي نحو منهج جديد، ص143.

وقد خلع الشاعر على القصيدة العربية الجدة وعمق الفكرة وعربية الصياغة وجاءت قصائده هادئة كالموج وكأننا أمام قصائد فرسان العرب في الجاهلية بما احتوت من القوة في النفس الشعري، وقوة في اللفظ والمضمون في الدعوة إلى قيم البطولة العربية والمروءات العربية.

وبذلك بدأ المتنبي يرسي تقاليد عربياته الأدبية من خلال نماذجه الفكرية، فقلب المتنبي في الصحراء المترامية وفيها تموج به هذه الصحراء من حياة وأحياء، وفيها يربط بين أحيائها من علاقات ومواضعات، وقد تناول كل هذه الجوانب بغير قليل من الاحتفاء الشكلي الذي برز في فحولة الأسلوب، وصلابة الصياغة، ووحدة البيت وتوحيد القافية، والابتداء بالغزل والاختتام بمجموعة من الحكم منتزعا مفرداتها من مجموعة تجاربه ومشاهداته في الحياة²⁹.

والشاعر بجعلنا "نشعر كأنه يخلق بنا ملء جناحيه القويين في آفاق فسيحة مترامية تمتد أمامنا إلى ما لا نهاية أو كانت يحملنا فوق نهر متدفق تندفع تياراته الصاخبة في قوة وعنق، وهي تجرف أمامها كل ما يعترض طريقها من سدود أو صخور لتلقي بها بعيداً عن مجرى النهر، حتى لا يتوقف اندفاعه أو يتعثر تدفقه"³⁰.

وقد ظلت لغة الشعر عند الشاعر قريبة من لغة العصر الجاهلي من حيث معجمها الشعري، وباتت أشعاره العربية تعبيراً عن شخصيته، وصحيفة لأحواله لا يشاركه فيها أحد غيره، وسجلاً لحياته المتمردة الثائرة بكل ما تتطوي عليه من آمال وآلام، وطموحات، وكل ما يدور فيها من بطولة ومفاخرة وصراع.

وهكذا كان صدى البادية العربية في المتنبي قوياً فأمدته "برصيد لغوي وفني ثري راح ينفق منه بغير حساب، ويتصرف في ثقة - بل في جرأة - تصرف البدوي صاحب اللغة الواثق من سلامة سليقته وأصالة طبعه الذي لا يتردد في أن

²⁹ محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر، سلسلة أقرأ العدد 447، دار المعارف، مصر، 1978م، ص6.

³⁰ يوسف خليف، في الشعر العباسي نحو منهج جديد، ص143.

يستخدم من مفرداتها وتراكيبها ما يطمئن إليه حسه اللغوي وهو واثق من صحته مطمئن إلى سلامته، مدافع عن موقفه في اعتداد نفسه³¹. وكان قلب الشاعر مع البادية وعقله وعينه على الحاضرة فاخترن في ذاته عالماً مزيجاً من البداوة والحضارة، مزيجاً من الموروثات العربية بأصالتها وعراقتها، والعناصر الوافدة بطرفتها وجدتها، وبهذا استطاع المتنبي أن يقدم لنا قصيدة من لون جديد تمازجت فيها الحضارة بعناصرها وأفكارها الوافدة، والبداوة بعناصرها الأصلية التي صقلتها العقلية الجديدة التي جاء نتيجة اطلاعه على ثقافات عصره، وبيئات زمانه المختلفة التي شكلت فرصة ذهبية لينهل من المعارف والعلوم والاطلاع على الكتب وما تحويه بين دفتيها من حقائق. كما هيأت له المجالس الأدبية للخلفاء والوزراء وبعض المشهورين من الكتّاب والشعراء والفقهاء والفلاسفة فرصة لينفذ إلى أغوار المعرفة العميقة وتزوده بأسباب الثقافات الأخرى لغة ونحواً، وقد مكنه ذلك من أن يكون واسع العلم بأسرار اللغة العربية وغريبها ولهجاتها ومذاهب النحاة ومذاهب الشعراء بكل اتجاهاتهم الشعرية والفنية .

ويرى ابن جني أن المتنبي "علماً من أعلام اللغة، وإماماً من أئمة النحو، وراوية من رواة الشعر الكبار"³² ومن الواضح أن الشاعر في عشقه للبداية العربية إنما كان يبحث عن ضالته المنشودة "عن الذات العربية التي ضاعت في بغداد بين الموالي من العجم والديلم والترك الذين تولوا شؤون الدولة وتصريف سياستها، وسيطروا على الخليفة فيها"³³ خاصة وقد نشأ الشاعر في ظروف سياسية تفتقد إلى روح العروبة التي يحرص عليها شاعرنا. لذا فقد نمت في نفسه روح التعالي على أناس عصره، والبحث عن الذات العربية المفقودة التي حاول إيقاضها واستنهاضها من رقدتها، وتنبهها للمخاطر المحيطة بها في مواجهة العجمة

³¹ نفسه، ص 143.

³² نفسه، ص 145.

³³ أيمن العشماوي، قصيدة المديح عند المتنبي ونظورها الفني، ط1، دار النهضة العربية، بيروت،

1983م، ص 72.

والمتنبي لم يكن شاعراً كغيره من الشعراء، وإنما كان ملتصقاً بكلمته وفعله وأخلاقه البدوية أشد الالتصاق، وإن صورته الحقيقية إنما هي تلك الصورة التي ترسمها لنا قراءتنا لأشعاره العربية، وفهم علاقتها بزمانه المضطرب، صاغها لنا في أرقى الألفاظ وأقوى التعبيرات، وهي منتشرة في قصائد متفرقة بين أغرضه الشعرية، ولكن علاقتها وطيدة حيوية بكل مقام يكون فيها شاعرنا.

خاتمة

- بعد هذا البحث الموجز في موضوع أثر البداوة العربية في شعر المتنبي، نصل إلى العديد من النتائج والتي يمكن أن نتلخص في النقاط الآتية:
- قد بقى المتنبي أسيراً لبداوته التي طبعت حياته وتصرفاته من صباه إلى لحظة مصرعه، ولقد بقى أثر البادية عميقاً في حياته، مطبوعاً في ذهنه وخياله فكان شعره لا يخلو من هذا الأثر حتى بعد انتقاله إلى الحضرة.
 - كان المتنبي لظروف نشأته البدوية، وتغلغلها في أعماق حياته، وعشقه لأسلوب حياته أثر واضح في شعره فهو العربي القح الذي قوت البادية وإقامته فيها من عصبية العربية، وأذكت انتماءه إلى الأصل العربي فازداد تعصبه للعرب والحياة العربية، لذا نراه يذكر العرب دائماً مفاخراً بهم.
 - يؤكد المتنبي انتماءه العربي إلى البادية العربية بكل جذورها وأبعادها النفسية والأدبية، فهو يسير على نهج شعراء الجاهلية وفاء للتقاليد العربية الشعرية، ووفاء للأطال وتربها الطاهر.
 - كان المتنبي بدوياً قحاً في دعوته إلى التمسك بالقيم العربية البدوية الأصيلة، متأثراً في ذلك بطبع البداوة الذي طبع عليه، فكانت أخلاقه هي أخلاق البدوي صاحب النفس الأبية، وقد أثر ذلك في لغته الشعرية فباتت قصائده تقترب من عيون الشعر العربي في الجاهلية لغةً ولفظاً ودلالةً وبداوةً إن لم يتفوق عليها.
 - كان ارتحال المتنبي إلى البادية رافداً هاماً من روافد ثقافته ولغته ومكوناً شخصيته العربية.

المصادر والمراجع

- ابن جنبي، الخصائص، ط دار الكتاب المصرية، 1956م.
- أبوالقاسم الأصفهاني، الواضح في مشكلات المتنبي، تحقيق محمد طاهر بن عاشور، ط2، تونس 1986م.
- أنيس المقدسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، دار العلم للملايين، ط16، بيروت، 1987م.
- أيمن محمد العشماوي، قصيدة المديح عند المتنبي وتطورها الفني، ط1، دار النهضة العربية، بيروت، 1983م.
- الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، مصر، 1349هـ-1931م.
- زكي المحاسني، المتنبي، ط4، دار المعارف، مصر، 1971م.
- سعد إسماعيل شلبي، مقدمة القصيدة، عند أبي تمام والمتنبي، مكتبة غريب، القاهرة.
- عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1375هـ-1965م.
- المتنبي، ديوان المتنبي، شرح عبد الرحمن البرقوقي، ط دار الكتاب العربية، بيروت 1986م.
- محمد أحمد العزب، ظواهر التمرد الفني في الشعر المعاصر، سلسلة أقرأ، العدد447، دار المعارف، مصر، 1987م.
- محمد ثابت الفندي، وآخرون "مُترجم" دائرة المعارف الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997م.
- محمود محمد شاكر، المتنبي، مطبعة المدني، القاهرة، 1407هـ-1987م.
- يوسف البديعي، الصبح المنبي عن حيثية المتنبي، تحقيق مصطفى السقاء ومحمد شتا، دار المعارف، مصر، 1963م.
- يوسف خليف، في الشعر العباسي نحو منهج جديدة، مكتبة غريب، القاهرة.



